الفصل الاول من روايـة

بان الصبح ...

عبد الحميد بن هدوقة

أتمت دليلة (*) الحركات الرياضية التي تقوم بها كل صباح . وتقدمت من مرآة الخزانة ، وقالت وهي تنظر الى وجهها وجسمها فيها :

« أنا جميلة ، أليس كذلك ؟ اياك أن تعكسي أمامي صورة زائفة لحقيقتي ! هذا شعري أعرفه بلونه الخروبي وطوله . هاتان عيناي العسليتان الحالمتان بتفجير شيء ما ... هذان حاجباي المقوسان الرقيقان . هذا أنفي المستقيم الذي يأنف من انحرافي . هاتان شفتاي الرهيفتان اللتان تحسنان التدخين والشرب أكثر من القبلات ! » .

فكرت لحظات وهي واقفة أمام المرآة ، ثم قالت :

« صدري لم يستسلم ، ما زال دائما في حالة تأهب ! وهذا خصري ... » .

تنهدت وهي تنظر الى خصرها وسخرت منه تقول :

« ستصير برميلا ذات يوم بفضل كريمو ... » .

اتجهت على اثر ذلك الى منضدة السرير فأخذت سيارة وأشعلتها وجذبت أنفاسا ، واذا بالباب يدق ، يصحبه صوت أبيها :

ـ الا تقومين ؟

أطفأت السيكارة بسرعة ، وأشارت الى المرآة هامسة : « الجنرال ! الجنرال ! » وخرجت مغلقة الباب وراءها بسرعة لئلا يدخل ابوها الغرفة ، وأجابته :

ـ لي درس عند الحادية عشرة ، والساعة الآن الثامنة والربع .

فسألها :

ـ وهالة ؟

ـ خرجت في السابعة والنصف . دروسها تبدا في الثامنة .

ـ مع من تذهبين الى الكلية ؟

ـ كالعادة . الحافلة أو بعض الاصدقاء .

ـ اياك أن تركبي مع أي كان !

ابتسمت ساخرة من أبيها ومن نفسها وأسرت : « على ماذا تخاف أيها الجنرال ؟ انتهى الامر ... انه هنا في بطني منذ شهرين ! » . ثم أفصحت :

ـ أنا أركب مع اي كان ؟ لا . أبدا !

وفي نفسها كانت تقول: « اللهم الا اذا لم أجد.. » .

فقال لها الشيخ علاوة معتدا بنفسه :

ـ نحن اليوم لنا اجتماع حول « الميثاق » عند الساعة التاسعة .

وأضاف وهو يغادرها :

ـ اليوم يوم أعداء الله !

نظرت اليه باشفاق وسخرية وهي تتمتم بين شفتيها : « أعداء الله ! كأن الله عاجز عن الدفاع عن نفسه !.. » .

عادت الى غرفتها فاستلقت في الفراش ، وأخذت علبة السجائر فأشعلت واحدة وجذبت منها نفسا وأرسلته ببطء لتتابع تعرجات الدخان ، كما تفعل عندما تكون منشغلة البال . أقلعت سيارة أخيها الاكبر الذي يصاحب أباه الى ساحة الشهداء عندما ينزل مبكرا ، ومن هناك يتوجه الى عمله. فقالت في نفسها : « لو كنت سيارة لاتجهت في خط مستقيم ... » ، لكن الخاطرة لم تكن موفقة ، فاستدركت : « وما الفائدة ؟ أتحطم عند أول عارض ... لو كنت بركانا ، البركان له ما يقول ... أفجر أولا الثكنة التي نحيا فيها، ثم ... » .

(*) للكاتب روايتان ترجمتا الى الفرنسية هما « نهاية الامس » و « ريح الجنوب » التي حولت الى فيلم .

وقفزت في ذهنها فكرة : تكلم كريمو الذي وعدها أن يجيبها في مدى اسبوع . وقد انتهى الموعد ، ولم تتصل منه بجواب .

نزلت الى الصالون في الطبقة الارضية حيث الهاتف . ركبت الرقم فاذا بصوت يجيبها : « هنا صونانراك ... » ، فاستعذرت وأعادت تركيب الرقم ، فاجابها صوت آخر : « س.ت.س. في خدمتك... » . وضعت السماعة ، وفكرت : ماذا تعمل ؟ الهاتف لم يرد ان يذعن لرغبتها ! طفقت تركب الرقم من جديد ، فيجيبها صوت لم يستيقظ صاحبه جيدا :

ــ الو ... نعم ...

ــ أنا دليلة ! (بحدة) .

فيجيبها كريمو . وقد أيقظته تماما حدة الصوت :

ــ صباح الخير . ماذا تريدين في هذا الوقت المبكر ؟

ــ (امره) اريد أن نتلاقى عند الساعه الثانية زوالية !

ــ عند الساعة الثانية ؟ (بتردد) أين ؟

ــ في شارع محمد الخامس .

ــ (محتارا) لكني لا أستطيع ... أختي تزف عروسا يوم الاحد . وأبي قرر أن يقيم حفلة لاصدقائه غدا فلا يمكن أن أتغيب ، لا اليوم ولا غدا ولا بعده ، حتى ننتهي من هذا الزفاف ..

ــ لا بد أن نتلاقى اليوم ! (يزداد صوتها حدة وتهديدا) .

ــ لماذا لا نتلاقى يوم الاثنين او أي يوم آخر بعد الزفاف ؟

ــ (بقوة) لا ! عند الساعة الثانية بعد الزوال !

تضع السماعة بقوة وتنهي المحادثة ، واذا بأمها تدخل . وتسالها :

ــ مع من كنت تتكلمين يا طفلة ؟

فردت ساخرة :

ــ صباح الخير ، كومندان !

ــ مع من كنت تتكلمين ؟ كفاك مزاحا !

ــ مع خالتي !

ــ من خالتك هذه ؟ أم تسخرين مني ؟

ــ خالتي هي خالتي ... الانه ليس لك أخت فينبغي أن أبقى بدون خالة ؟

ــ متى تنتهين من هذه السخرية ؟ أتحسبين انك ما زلت صغيرة ؟

ــ أبدا ، كومندان . اعرف جيدا انني لست صغيرة بالمرة !

ــ معك لا يمكن الكلام ...

رجعت العجوز كلثوم الى المطبخ كالمغضبة .

وصعدت دليلة الى الدور الثاني ، الى غرفتها . فتحت الخزانة تبحث عن تبان نظيف تلبسه ، فوجدت كل سراويلها الداخلية وسخة ، في كل مرة تنزع واحدا ، ترميه في زاوية الخزانة ، وتنسى تنظيفه من بعد ... نزعت التبان الذي عليها ورمته مع الاخرى . ثم رزمت الجميع مع بعض المناديل والصدارات في قميص نوم ، وأخذت حقيبتها اليدوية والرزمة وخرجت . رأت باب « الرزق على الله » مغلقا (باب غرفة أخيها الاكبر) وكانت تنوي أن تطلب من زوجة أخيها ، منى ، أن تغسل لها في هذه المرة أثوابها . لكن لما رأت الباب مغلقا عدلت عن ذلك . ومرت بباب غرفة أخيها ، رضا ، فدقت على كلمة « الدخول حر » المكتوبة على الباب ، فلم يجبها أحد . نزلت الى الدور الثاني فدقت على باب « كلبة واعرة » ، باب أختها الكبرى زبيدة ، ففتحت لها الباب نعيمة ، ابنة عمها التي تدرس في الجزائر . زبيدة لم تكن هناك . سألتها :

ــ ليس لك دروس اليوم ؟

ــ قولي ، صباح الخير ، اولا ...

ــ خير ماذا ؟ أعندك خير انت ؟

ــ طيب . لا أدرس اليوم ، أنا حرة .

ــ قولي . لا أدرس اليوم ، بدون حرية ... أين هي زبيدة ؟ مع الكومندان ؟

ــ ربما . ماذا تريدين عندها ؟ وما هذه الرزمة التي في يدك ؟

ــ هذه ... ليست بذات أهمية . أعرف انك تقسمين بكل الأيمان أن تغسليها انت . لكن ... اليس كذلك ؟

ــ ليس كذلك ! مع السلامة . أنا حرة ، والحرية لا تقبل الاوساخ !

ــ في كليه الادب لا يلقنونكم شيئا كبيرا على ما يبدو !

ــ في كلية الحقوق يلقنونكم اغتصاب حرية الناس ! مع السلامة ...

وقفت نعيمة بالباب مازحة تشير لها بالخروج . فاقتربت منها دليلة ووضعت ذراعيها على كتفي ابنة عمها . وقالت لها ساخرة :

ــ أقسم بحبك لي أن تغسلي مع ثيابك هذه الاثواب الداخلية . انها نظيفة وانما أحببت أن أزيل عنها رائحة الخزانة !

وقبلتها على كتفها كما يفعل في الريف مع الرجال .

ــ أنت التي يناديك شباب الحي : دليلة ــ الرجل ، ولست أنا !

ــ لذلك قبلت كتفك ! لكن لا بأس ، أنت ابنة عمي وقبلة على جبينك ليست خسارة كبرى ...

قبلتها على جبينها ساخرة . فقالت لها نعيمة :
ــ في أي سنة تفكرين الانتهاء من السخرية ؟
ــ عما قريب ... أؤكد لك .

تركت لها ملابسها الداخلية ونزلت الى المطبخ ، فوجدت أمها وأختها الكبرى وزوجة أخيها هناك ، فحيت :
ــ صباح الخير ، أيها الرفاق (بصيغة المذكر) !

فقالت لها أمها :
ــ الى متى وأنت تسخرين ؟
ــ عفوا ، كومندان . أمزح لا أسخر . علينا بالدقة في التعبير ... ألم تسمعي حوار التليفزيون ؟ كل واحد يتهم الآخر بعدم الدقة في التعبير !
ــ ما لك يا طفلة ؟
ــ هوني عليك يا ماما ! أمزح ليس الا . اجلسي ، اجلسي يا أميمتي الصغيرة . أنا أفرغ القهوة وحدي بدون أن أتعبك .

قبلتها وجلست فشربت قهوتها في جرعات وخرجت .

* * *

وقفت دليلة في مفترق الطرف بين حسين داي والقبة لعل سائقا ممن تتوسم فيهم « غباء خاصا » يدعوها للركوب ...

وأخذ السواق يغازلونها من سياراتهم بالاشارات الضوئية ، والبعض بالكلمات والغمزات ، وهي لا تأبه بهم ، لانهم كانوا من الشبان . ان تجربتها علمتها ان الركوب مع من اجتازوا مرحلة الشباب ، ولا سيما المتزوجين منهم ، أضمن طريقا . بين بن عكنون حيث تدرس وهذا المكان الذي تقف فيه ، قلما كانت تجد من يضحي بالبنزين والوقت من الشبان . انهم بمجرد ان يسمعوا « بن عكنون » يأخذون في الاعتذار والتأسف الذي لا يغنيها عن طريقها ...

ها هي سيارة ، كانت مسرعة ، واذ رأتها خففت السرعة ! ها هو رجل بداخلها يتجاوز الاربعين يشير اليها ... تنظر دليلة الى الرجل : يلبس نظارة سوداء لا تتبين من خلالها طريقة نظره . تتردد ! السيارة تبتعد « راجلة » في تباطؤ كبير ! اشارتها الضوئية اليمنى تلح على دليلة : اقبلي ! لا تخافي ! تلتحق به دليلة . تركب الى جانبه . يحييها مرحبا ويعتذر مكانها :
ــ الحافلات صارت عذابا !
ــ وأي عذاب !
ــ أتسكنين في هذه الناحية ؟
ــ لا ، كنت عند خالتي .
ــ آ ... لك خالة تسكن هنا ... جميل .
ــ اين تريدين أن أوصلك ؟
ــ الى بن عكنون فقط . اذا امكن .
ــ تسكنين هناك ؟
ــ منذ أربع سنوات !
ــ جميل !

يأخذ علبة سكائر أميركية من درج السيارة ويناولها سيكاره ، فتأخذها منه . يجذب القداحة الكهربائية ويقدمها لدليلة وهو يبتسم . تلاحظ طاقم أسنانه الاصطناعية التي موهها بنابين من ذهب . تقول في نفسها : « ان الرجال لا يريدون أن يظهروا كبارا أكثر من النساء ... » . تشعل السيكارة وتعيد اليه القداحة شاكرة . تنتظر ماذا يفعل بعد السيكارة . لكن الرجل يبقى في حالته الطبيعية . لا يبدي أي حركة أو اشارة خارجة عن نطاق الاصول العامة للسلوك . ثم بغتة يفاجئها سائلا :
ــ ماذا تدرسين ؟

فتجيب تلقائيا :
ــ الحقوق .
ــ جميل ! كم سنة بقيت لك ؟
ــ هذه سنتي الاخيرة .
ــ أنا رئيس مصلحة ادارية باحدى الشركات . مكتبي بالمدينة .
أعربت له دليلة عن أسفها لاتعابه واضاعة وقته ، وقالت :
ــ اذا شئت ، اتركني هنا . لست مستعجلة .
فأجابها مبتسما :
ــ هوني عليك . أنا أيضا لست مستعجلا . أعمل بشركة خاصة يملكها شخص واحد . لا يهمه حضوري ، يهمه عملي أتمه نهارا أم ليلا .
ــ أنا ظننت ان العمل عند القطاع الخاص أصعب .
ــ وأنا قلت لك أسهل ؟ انما اتفقنا على أن يكون وفني لي وعمله له ! هكذا لكل حسابه ... لو لم أتم العمل المطلوب مني بالنهار أتمه بالليل !
ــ كيف يستطيع تقدير ذلك ؟
ــ ممارسة المهنة زمنا طويلا تعلم كل شيء . مثلا في القطاع العام ، المردود يساوي عشر الطاقة المستخدمة !

هزت دليلة كتفيها كمن لا يعنيه الامر . فقال :
ــ هذه مشكلة من مشاكل الجزائر ... مشكلة كبيرة . ان لم تحل وجدت البلاد نفسها بعد بضع سنوات كالرجل الذي فقد ذاكرته !

راق التشبيه دليلة ، ولكنها لم تفهم الام يرمي بكلامه . انه يعمل بالقطاع الخاص ، بأي حق يسمح لنفسه بهذا النقد ؟ أم هي عدوى من « معلمه » ؟ وفكرت ان تهاجمه لترى كيف يصد ضرباتها ، فقالت :
ــ ألم تقل انك تعمل بالقطاع الخاص ؟

ادرك الرجل ما تعني بهذا التساؤل فرد الهجوم :
ـ هل أفقد جزائريتي بذلك ؟
ـ ليس هذا ما أعني ، لكن ...
ـ ماذا ؟
ـ ظننت ان القطاع الخاص يسره أن يرى الجزائر تحيا بعشر طاقتها ... لا ؟
ـ تحيا... أظن يا آنسة انالتعبير الذي استعملته لا يتأتى من طالبة في الحقوق . اذا استطاعت الجزائر أن تحيا بعشر طاقتها ، من ذا يكون مثلها ؟ كان عليك أن تقولي انها تموت تحت ثقل التسعة أعشار الضائعة !

قالت دليلة في نفسها : « بدأ يقلقني ... أنا ابحث عن تفجير العشرة أعشار ، حتى يعلو الدخان الى أعلى السماء ، وهو يتحدث عن... لست أدري ماذا ... » .

لما رآها سكتت قال :
ـ من يدري ، ربما بعد المصادقة على الميثاقالوطني تصير الرؤية واضحة ؟
ـ هذا في الوقت الراهن لا يهمني كثيرا . انا مشاكلي لم أستطع حلها فضلا عن مشاكل ستة عشر أو سبعة عشر مليون جزائري !
ـ ما يجري في بلادك يهمك ، أحببت ذلك أم لم تحبي ! لكن لا أدري ما هي مشاكل من في الثانية أو الثالثة والعشرين من العمر ؟ الحياة كلها أمامك . كل يوم تكتشفين اكتشافا جديدا ! ما لك والمشاكل انت ؟ أنا في سني هذه وليست لي مشاكل ...
ـ من حسن حظك .
ـ من حسن تنظيمي ! نعم ، من حسن تنظيمي... أنظري الى هذا الجسر الذي نقطعه . ليست الفوضى هي التي بنته ولا الصدفة وضعته هنا ، انما الانسان المنظم . لقد فكر ان السيارات لا يمكنها أن تمر من شعبة غائرة مثل هذه ، فمدّ الجسر .

وكانا حينئذ قد وصلا الى الجسر الرابط بين حيدرة والجهة المطلة على البحر من المدينة . فقالت دليلة :
ـ هناك ظروف لا يستطيع الانسان مجابهتها بسهولة ...
ـ المجابهة هي الاساس . السهولة تأتي بعد ذلك . الآن لو لم أقتحم بسيارتي ، وأنتظر السيارات الاخرى تفسح لي الطريق ، لبتنا هنا . كذلك الحياة .
ابتسمت دليلة وردت له ملاحظته الاولى :
ـ المجابهة غير الاقتحام !
ادرك بسرعة ما تعني ، وقال :
ـ واحدة بواحدة ... لكن مع ذلك ، كل من المجابهة والاقتحام يتطلبان الشجاعة والاستمساك بحرية العمل .
ـ واذا لم يمكن ؟

ـ أنا طلقت زوجتي من أجل احتفاظي بحرية العمل التي حاولت تعطيلها .
قالت دليلة في سرها : « وصلنا الى بيت القصيد ! كل هذا اللف من أجل أن يقول انه طلق زوجته ! » .
لكن الرجل اضاف :
ـ وهي رغبت في الطلاق من أجل أن لا أعطل جزءا من حريتها . كلانا أدرك انه يحيا في مغالطة أخذتتسلب منه حريته بلا طائل .
التبس على دليلة أمر الرجل ، ولم تدر ماذا هو ؟ ماذا يريد ؟ ماذا يعني بكلامه ؟ هل هو يلمح الى أشياء سياسية ؟ هل انتقلت اليه عدوى تفكير مستخدمه ؟ أم انه يتحدث ليتحدث ؟

ورأت أن تجاربه ، اذ ليس هناك ما يترتب عن الاستماع اليه . فقالت :
ـ الطلاق ليس جميلا .
ـ بالنسبة اليّ جميل . لأني اكتشفت انه من المغالطات البشرية الكثيرة التي يحاول الانسان تغطية حقيقته بها . الزواج هو بديل زائف للجنة الضائعة ... وللجنة البعيدة كذلك !
ـ لم أفهم ما تقول !
ـ الامر بسيط . الجنة الضائعة هي اللاوعي الكلي ، والجنة البعيدة هي الوعي الكلي . هذا واضح ؟
قالت دليلة في نفسها : « أخذ يلقي درسه .. » :
ـ واضح .
ـ الانسان الآن في منتصف الطريق ، يحيا بجزئين : جزء يتصرف فيه وعيه ، وجزء يتصرف فيه لا وعيه .
ـ وماذا يترتب على هذهالحياة النصفية ، أو لست أدري كيف تسمى ؟
ـ يترتب عليها انه يدور في حلقة مفرغة . يحيا بالبدائل المزيفة !
ـ ماذا يفعل ؟
ـ ببساطة عليه أن لا يغالط نفسه ولا يبني حولها سجنا ضخما بما يخلق من قيود وحدود . ليفرغ للعمل الجاد ويخرج من سيطرة اللاوعي بأقل ثمن !
ـ كل هذا يفوق حدود مداركي .

كانت السيارة وصلت بهما الى المدرسة الادارية ، وكانت كلما اعتقدت انها توصلت الى فهم مقصود الرجل ازدادت تيها . وفكرت : اما انه رجل مريض واما انه يسعى الى شيء لم تتوصل الى تصوره . ومهما يكن ، فلم تبق لها معه الا دقائق معدودات وتنزل . واذا بالرجل يتكلم :
ـ ذات يوم كنت بأحد الشوارع ، وكان أمامي زوجان في مقتبل العمر ، لست أدري ان كانا متزوجين ام لا . كانا يمشيان في انسجام ، واذا بالمرأة تنحني

وتنزع من رجلها حذاءها وتنزل به على راس الرجل ! اجتمع الناس حولهما ، البعض للتفرج والبعض لمحاولة التوسط بينهما ... ثم انطلقا سائرين من جديد كما لو لم يحدث بينهما ما يستحق القطيعة !..

قاطعته دليلة سائلة :

ـ هنا بالجزائر ؟

ـ هنا بالجزائر . لكن ما الفرق ؟ عندما يكون الامر يتعلق بالمرأة والرجل ، العالم كله يصير بلدا واحدا ...

واستأنف يقول :

ـ ومن ذلك اليوم ادركت انه في لاوعي كل رجل امرأة ، وفي لاوعي كل امرأة رجل . القصة واحدة منذ الازل والى الابد ، والممثلون يتعاقبون على تأدية الادوار ! لذلك فأقل ثمن ندفعه هو أن نتعلم أننكون احرارا دائما . ولهذا قلت لك من قبل : ان الزواج هو البديل المزيف لما في لاوعي كليهما !

ـ ان ما تقوله يستوجب انقلابا كليا في الحياة والسلوك والتصور ، يستوجب انفجارا ضخما !

ـ ولم لا ؟

ـ لو يتحقق هذا . لانفتحت آفاق أخرى امام الانسان ! تصير الحياة فعلا مغامرة عظيمة تستحق الحياة ، ويصير المستقبل ...

ـ لا داعي للمبالغة ... الآفاق ، المغامرة العظيمة ، المستقبل ... كلمات جعلت لتغطية العجز وعدم تحقيق الرغبات في الحاضر . المغامرة العظيمة بين أيدينا لا تتطلب منا سوى أن نحياها !

وكانت السيارة وصلت أمام مقر الديوان الوطني للصناعة والتجارة السينمائية ، فقال لها :

ـ أين تريدين النزول ؟

ـ شكرا ، أنزلني هنا . لست بعيدة .

فقال لها ضاحكا :

ـ عن سكناك انت بعيدة !

قالت في نفسها : « لم أسجل معه هدفا ! لكن ، من هو ؟ هل يعرفني ؟ ولماذا كل هذه الاحاديث والتفلسف ؟ » .

فكرت أن تطلب منه عنوانه أو تسأله عن اسمه ولكنها عدلت عن ذلك : « لن يقول لي الحقيقة . ما الفائدة ؟ الرجل عندما لا يكذب على المرأة يعتبر نفسه أحمق أو غبيا ! » .

اقلعت السيارة وتابعتها دليلة لحظات ، حتى غابت عن عينيها في الطريق المؤدي الى حي الأبيار .

بقيت في مكانها برهة عساها أن ترى بعض زملائها. ولما لاحظت رجلين في آخر شبابهما يتسكعان حولها بصقت في اتجاههما وانطلقت مع الطريق الى كلية الحقوق .

صدر حديثا :

طيور بعد الطوفان

للشاعر

ياسر بدرالدين

يصلك عبر لوحاته اللحمية بادق الامكنة حساسية ، حيث ترتفع اغاني الوجدان المعذب لتمتزج بعذابات النفس التواقة الى الخلاص.. النيران في كل مكان . تشبّ من البقايا ومن البدايات ، والرياح تحرك الصواري التعبة . والايقاع دافىء وهادىء أو بارد متضجر .

انه المعادلة الاصعب لحركات بطيئة وسريعة ، تنبعث وتتلاشى على الشواطىء والسفوح والمطلات ، انه المعادلة الانقى لحب قديم فجّر الرواسب وحرّك الحي من جذوره ، وهو المعادلة الشاملة حيث يبدأ النمو بين الخرائب الرمادية والاسواق العائدة الى الحياة .

« طيور بعد الطوفان » مجموعة من اللوحات الرومانسية النافرة بشكل اجنحة تطير نحو عالم أجمل وأقوى .

منشورات دار الآداب